اغـــتراب المثقفيـــن

سعد محمد رحيم

ها هنا أتحدث عن المثقفين اليساريين الديمقراطيين والليبراليين والعلمانيين ، وهؤلاء يمكن أن يكونوا منتظمين في أحزاب أو حركات أو مؤسسات ، لكنني لا أتناولهم لصفتهم هذه ، مع استبعادي بالمقابل لمروجي الآيديولوجيات الدوغمائية وساكني الأبراج العاجية. ولكي أكون أكثر تحديداً أقول ؛ إن المثقف هو من تشغله معضلة المعنى بحسب دوركهايم ومن (يتحلى بروح مستقلة محبة للاستكشاف والتحري وذات نزعة نقدية واحتجاجية تشتغل باسم حقوق الروح وحقوق الفكر فقط) على وفق ما يذهب إليه محمد أركون ، ومن يصرح بالحق في وجه السلطة أياً كانت ، ويعكر الصفو العام بحسب إدوارد سعيد ، ومن تكون موضوعات العالم كلها بما فيها ذاته بالنسبة إليه ، محل رؤية عقلانية نقدية صارمة لا تهادن بحسب عدد هائل من مفكري الحداثة وما بعد الحداثة بدءاً بكانط وديكارت وسبينوزا وماركس ، وليس انتهاءً بهابرماس وفوكو وديريدا وإدوارد سعيد ومحمد أركون.

غرامشي

جان بول سارتر

ادوارد سعيد

وفي هذا المقام، أقصد بالاغتراب تلك الحالة المركبة من الشعور بالغربة . إذ أن الاغتراب هو شعور أولاً، أي ظاهرة سيكولوجية. الغربة التي تتخذ مستويات متعددة، بدءاً من الشعور بانفصال الذات عن الآخرين وعن محيطها.. عن معطيات هذا المحيط، فالذات المغتربة هي الذات المعزولة.. الذات التي فقدت قناة التواصل، وفرصة التواصل، وهذه الذات تنكفئ على نفسها، وتفضل الصمت غالباً على الكلام، غير أن الاغتراب هو صناعة سلطة ما وممارساتها في معظم الأحوال.

إن السلطة أياً كان طابعها تعمل على وفق آليتي (الإدماج . الإقصاء) في تعاملها مع من هم في ضمن مجال نفوذها، سواء كانوا داخل أو خارج كيانها المؤسساتي، وهؤلاء يتوزعون تراتبياً، في ضوء مديات امتثالهم أو عصيانهم . وتكون هذه بدرجات متباينة، وغير محصورة بدرجتين . فالسلطة، إذ ذاك، ستحاول احتواء وإدماج من هم مستعدون، أو مضطرون للقبول بعملية الدمج، وإقصاء، وتهميش، أو حتى إبادة من يكونون عصيين على ذلك. وكل سلطة تخلق أعداءها.. تفترضهم، وتحدد خندقهم ليتسنى لها تسويغ إدارتها القمعية باعتبار أن كل سلطة هي مؤسسة في إطار سياسي أواجتماعي، هي قمعية في نهاية المطاف.

في هذه المنطقة المعقدة يشتغل المثقفون حتى ليمكن أن نحدد مفهوم المثقف بمعيار وجوده الواعي فيها.. يكون المثقف مثقلاً بهاجس ووعي التغيير.. إن كينونته المعنوية تصبح مشروطة بالهاجس والوعي ذاك. وحتى مع حدوث التغيير لا تنتهي وظيفة المثقف.. إنه في الحالة هذه سيبحث عن أفق آخر.. إن وعيه النقدي كفيل بجعله على غير وفاق، وعلى الدوام، مع العالم.

استناداً إلى هذا يمكن أن نفهم فكرة حتمية اغتراب المثقفين في ظل السلطات كلها،ولا سيما الجائرة منها..

- إن المثقف العراقي، اليوم، لا يجد نفسه تحت طائلة وضغط سلطة الاحتلال، وسلطة الحكم فحسب، وإنما تحت طائلة وضغط سلطات أخرى، اجتماعية وأخلاقية مسيسة، والنمط الأخير من السلطات يعزز حالة اغتراب المثقف أكثر، كونها تحاصره في بيئته الضيقة، في عقر داره. وما يخشاه المثقف العراقي، في هذا المنعطف الشائك من تاريخنا، وهذا هو أحد الأسباب الرئيسة في انكفائه وشعوره بالاغتراب، هو اتهامه أما بالتخوين من قبل مدعي الوطنية، الذين يعتقدون أن الوطن ملكهم، وأنهم وحدهم يدركون مصلحته، ويستحقون حكمه، أو بالتكفير من قبل الذين يعتقدون أنهم يحوزون على التأويل الصحيح والنهائي للمعنى المقدس، ومن يخالفهم يكون مصيره الموت، ولا شيء سواه. وفي الوضع المربك هذا يستطيع شبه الأمي، أو بعبارة أقل وقعاً شبه المثقف، أن يزيح المثقف.. أن يرغمه على السكوت.

❖ ❖ ❖

لعقود أنشأ المثقفون لأنفسهم صورة بدت مقبولة، أو في الأقل لم تواجه بكبير اعتراض من قبل الآخرين.. تلك الصورة التي مثلتهم طليعة للمجتمع، ومنحتهم سلطة في حدود وظيفتهم.. كانت تلك الصورة مرتبطة بسياقها السياسي/ التاريخي، يوم كانت الحرب الباردة في ذروتها، وحركات التحرر الوطنية في العالم تفرض خطاباتها، وتتبختر في إهاب جاذبيتها الخاصة. أما اليوم، وبعد أن استدار التاريخ بزاوية متسعة، إذ تلاشت آخر أصداء الحرب الباردة، وأعلن الأميركي من أصل ياباني "فوكوياما" فكرة " نهاية التاريخ" تعبيراً عن انتصار الليبرلية/ الرأسمالية المدوي، وتغلغل منطق العولمة ليطبع شكل العالم وخريطته بطابعه، إلى حد بعيد، اهتزت الصورة التقليدية للمثقف الذي ما عاد يجرؤ على القول أنه يمثل طليعة المجتمع، فاقداً في هذا التغيير المهول شرعية وظيفته القديمة.. في هذه النقطة المأزومة، عند هذا التقاطع الشائك، يجد المثقف نفسه منتزعاً من أفق حلمه، وأكاد أقول؛ وهمه، وملقىً به في تيه غربة مؤسية. فالعالم لم يعد كما تصور، وكما أراد، ففك ارتباطه به، وانسحب إلى ذاته.. إلى تلك العزلة المريرة، محبطاً، ومملوءاً بشعور حاد بالعجز والخسران.. لقد فقد وظيفته/ سلطته/ مكانته/ جاذبيته/ قبوله المميز بين الآخرين. غير أنه يمتلك الآن فرصته التي لا تعوض.. فرصته الأكيدة في أن يغادر وهمه القديم، ويتقمص وظيفته التي وجد من أجلها.. وظيفته في أن يكون شاهداً حياً لعصره، وناقداً له في الوقت عينه، ومن ثم رائياً، من خلل غربته وضبابها.. يدلي بشهادته دائماً، ولا يكف عن لعبة النقد، ويكون رؤية في الذات والآخرين والعالم.. رؤية لا يحتفظ بها لنفسه، وإنما يجهر بها دائماً ليخلخل القناعات والأوهام.

في الحقب الماضية كانت النخب والقوى السياسية تستميل النخبة الثقافية، وتحاول كسب ودها، أن تجعلها طيعة، ممتثلة، أو أن تحوز على رضاها، غير أن هذا الأمر كان في الحقب الماضية. أما الآن، في الراهن العراقي، فيبدو أن النخب والقوى السياسية ليست بحاجة إلى النخبة الثقافية.. إن طغيان وسائل الإعلام، وطبيعة وآليات عملها يتيح للسياسي تسويق إيديولوجيته ومشروعه، من دون ذلك الوسيط العتيق المسمى بـ "المثقف". فالسياسي بحاجة إلى نوع من التقنيين الذين يتقنون فن استثمار وسائل الإعلام لتسويغ توجهات وسلوك السياسي، لا نقده.. إن ما يستبعد، في هذا المسار، وينبذ هو البعد النقدي.. والجعجعات الفارغة التي يتبادلها معظم السياسيين، واتهام بعضهم بعضاً يمكن أن تكون أي شيء سوى النقد. ووسائل الإعلام الفائقة السرعة، والقادرة دائماً على صنع الإثارة، تمتص الخطاب النقدي الذي هو خطاب المثقف/ المفكر جاعلة منه غير ذي فاعلية أو تأثير.. إن ذلك الخطاب غالباً ما يضيع وسط هذا الضجيج الباعث على الدوار، إن لم نقل على الجنون.. يتشظى هناك، ويتبدد.

❖ ❖ ❖

يعكف المثقف العراقي الآن على التفرج.. التفرج السلبي أكثر من المراقبة الدقيقة.. المراقبة تعني نوعاً من المشاركة.. أن تشارك الشيء المراقب، وتكون كما لو أنك جزء عضوي منه.. المثقف الآن لا يرغب بالمشاركة، ولذا فهو متفرج أكثر من كونه مراقباً جيداً.. إنه ممتعض، في قلبه مرارة ويأس، وفي عقله حيرة وشك، وعدم يقين.. إنه في محيطه وخارجه في الوقت نفسه، محاصر بمعطياته وإشاراته من غير معين.. لقد هبت الريح، على عكس ما اشتهت سفنه، وها هي سفنه في عرض المحيط المتلاطم، تائهة، مضعضعة، وتوشك على الغرق. وحيث أن اغتراب المثقف حالة ذاتية فردية، قد تكون وهمية أحياناً، فهو في الراهن العراقي حالة وظاهرة جماعية تسم واقع المثقفين العراقيين بسبب العوامل التي ذكرناها والتي سنذكرها.

يفضي إخفاق المثقف إلى اغترابه، إلى انفصاله عما حوله.. يدير عينيه إلى الجهة الأخرى الخالية، ويفكر بالهرب، ويحلم بالمنفى.. هكذا هو حال قطاع واسع، هو الأكبر من شريحة المثقفين العراقيين، الآن، حين يختلون إلى أنفسهم، أو إلى بعضهم بعضاً.. يفصحون عن نيتهم في المغادرة، إذا ما أتيحت فرصة مضمونة، باحثين لهذه الفكرة عن مسوغات.

ليس التفكير بالمنفى عيباً، أو اختياراً مشيناً في الأحوال كلها، وقد غادرت إلى المنافي ابتعاداً عن جور الواقع السياسي والسلطات بأشكالها المختلفة، في التاريخ الحديث والقديم أعداد هائلة من المثقفين في شتى بقاع الأرض. ولكن؛ من سيستفيد من مغادرة هؤلاء؟. لنسأل أنفسنا.. ثم؛ ماذا قدم آلاف المثقفين، من مفكرين وكتاب وصحافيين وإعلاميين وفنانين وأكاديميين وغيرهم لخدمة حالة الوضع العراقي الراهن بعد مغادرتهم للعراق خلال العقود الماضية. من غير أن يعني هذا بخس قيمة نتاجاتهم الفكرية والعلمية والإبداعية هناك؟. أليس الخراب الحاصل اليوم يعود في أحد أسبابه الرئيسة إلى هذا النزيف الثقافي المريع الذي أفرغ وما زال يفرغ البلد من نخبه وعقوله وإمكانياته الإبداعية تاركاً المجال للأدعياء، ومحبي السلطة من أشباه المثقفين، والموتورين، والمتعصبين ضيقي الأفق من أصحاب الفكر العشائري والطائفي والشوفيني، وشذاذ الآفاق ليعبثوا بمستقبل البلاد ويدفعوها باتجاه الهاوية؟.

إن المثقف بالتوصيف الذي بيناه آنفاً ما عاد يمتلك القدرة على التأثير في الشارع السياسي، والأخطر أنه ما عاد يساهم بحيوية في إعادة صياغة المفاهيم والقيم الثقافية للمجتمع، فخلال عقود من الزمان تغيرت لغة شرائح واسعة من المجتمع، فدخلت المفاهيم والقيم الطائفية والعشائرية والشوفينية على نطاق واسع في نسيجها، نابذة المفاهيم والقيم التي كانت قارة قبل ذلك التاريخ. وإذا ما قيض لمراقب ما أن يقارن بين المفردات والجمل التي كان طلبة الجامعات العراقية، بافتراض أنهم شريحة متقدمة في التعليم والثقافة، يتداولونها في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، وبين المفردات التي يتداولونها في الوقت الحاضر، لاكتشف فجوة مخيفة. أما المثقف فما زال يتعاطى مع أفكار ومفاهيم لم تعد ذات جاذبية عامة كما كان شأنها في عقود الخمسينيات والستينيات وحتى السبعينيات، على الرغم من أن فكرة أو مفهوم ما إذا ما فقدت جاذبيتها فهذا لا يعني بطلانها أو خطلها في الأحوال كلها، فالمثقف العراقي يعيش الآن ويلمس تلك المفارقة بين حلمه في دولة المؤسسات والمجتمع المدني مقابل انهيار مؤسسات الدولة السريع وطغيان قيم البداوة، وحلمه بالعلمانية والتعددية مقابل انتشار الأصوليات والشوفينيات، وحلمه بالحرية بمعناها الكوني مقابل المحرمات التي صارت تطوقه من كل حدب وصوب. وباستعارتنا مقولة لغرامشي نجد مثقفنا ذا البصيرة النقدية يراقب بشغف شبه يائس قديماً يرفض أن يموت وجديداً تعسر ولادته.. في هذه الدوامة الصعبة تتعكر الأحلام، وتهتز الآمال، ويبدو العالم وكأنه خرج عن مساره المنطقي وولج مداراً مجهولاً.

كانت للمثقف العراقي جسوره القائمة مع الناس إلاّ أن هذه الجسور بدأت تنهار الواحدة تلو الأخرى مع بدء تبدل علاقات القوة في العالم، وبدا وكأن هذا المثقف خسر مع ذلك التبدل مرتكزه العالمي المتمثل باليسار والقوى الديمقراطية الحية فضلاً عن حركات التحرر في العالم.. لم تعد هناك شخصيات كاريزمية ذات ثقل ثقافي كريجيس دوبريه وغرامشي وجان بول سارتر وسيمون دي بوفوار وهربرت ماركوز وفرانز فانون يمكنهم دعم مكانة المثقفين في العالم.

من جهة أخرى بات وكأن المثقف العراقي يدعو إلى بضاعة كاسدة، فمفاهيم مثل العلمانية واليسار وحتى الديمقراطية إلى حد ما لم تعد لها قيمتها التي كانت لها قبل عقود، فالديمقراطية شوهت في التطبيق منذ سنتين ونصف في ظل الاحتلال، والعلمانية شوهت مع فشل الحكومات الوطنية المتبنية لها منذ انتهاء عهد الاستعمار، واليسار الذي تراجع وشوه بعد اندحار التجربة الاشتراكية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي السابق، وفشل حركات التحرر الوطنية التي تبنت اليسار في الغالب، في تحقيق تنمية حقيقية على أرض الواقع. وعموماً تقلص إلى حد بعيد عدد المهتمين والمنشغلين بخطاب المثقف مقابل عدد المهتمين والمنشغلين بخطابات دعاة الأصوليات والهويات الضيقة. وإذا قيل أن عصر المثقف الداعية الرسولي قد انتهى فإن هذا لا يمثل إلا نصف الحقيقة، فدعاة الإيديولوجيات الدوغمائية بأشكالها كلها ما زالوا يستخدمون الوسائل والآليات القديمة في دعواتهم الزاعقة الانفعالية لتهييج الشرائح الأكثر أمية وجهلاً في المجتمع.

❖ ❖ ❖

في الوقت الذي تعولمت فيه الرأسمالية العالمية تعولمت الأصوليات الدينية وراحت تمد شبكاتها في كل بقعة من العالم، مقابل ذلك انكفأ المثقفون وتحولوا إلى أنوات معزولة، أو جماعات في جزر صغيرة، بعدما كانوا قبل عقود قليلة متعاضدين معولمين يشد بعضهم أزر بعض مهما بعدت المسافات بينهم على الأرض. واليوم يبدو وكأن المثقفين لم يعودوا يؤمنون بما لديهم، على الرغم من أن طروحات كثر منهم باتت أكثر نضجاً، لا سيما بعد تحررهم من سلطة الإيديولوجيا، ودخولهم المديات الحرة للنقد، موسعين من مساحة عالمهم الفكري باستثمارهم معطيات المنهجيات الجديدة في علوم اللسانيات والاجتماع والاقتصاد والتاريخ والأنثربولوجيا، وغيرها من العلوم الإنسانية المجاورة.. إن اغترابهم هو اغتراب في الزمان وفي الواقع، واغتراب عن نتاجاتهم الفكرية والإبداعية كما لو أن كل ما قالوه وبشروا به ما عادوا ذوي صلة به، كما لو أنهم لا يعيشون زمنهم، كما لو أن الواقع خذلهم، وخذل رؤاهم وأفكارهم، كما لو أن التطبيقات انتقمت من نظرياتهم، على حد تعبير برهان غليون. وإذا كان ماركس قد حدد الاغتراب بانفصال العامل عن نتاج عمله في المجتمع الرأسمالي، ويكاد يكون اغتراب المثقفين في حالتنا، وفي جانب مهم منه، هو انفصال المخاطبين المحتملين الذين يتوجه إليهم خطاب المثقف عن ذلك الخطاب.

كان الواقع إبان العقود المنصرمة أعقد بما لا يقاس من نظرياتهم ومشاريعهم، وها هم يكتشفون اليوم أنهم في حقيقة الأمر لم يفهموا واقعهم بالشكل الذي كان ينبغي فيه أن يفهم، وان تلك القوى التي استهانوا بها فيما مضى راحت تهزمهم، أو تكاد، في الشارع السياسي والثقافي، لا لأن تلك القوى تمتلك الصواب، بل لأنها حذقت في استغلال المناخ الإشكالي العام، مع الوسائل والتقنيات المتاحة وعرفت كيف تنفذ من خلال خطابها الانفعالي المسطح إلى العقول والضمائر وتستعمرها.

إن انهيار الطبقة الوسطى والبرجوازية المدينية في العراق، وتبدل الخارطة الجيوسياسية في العالم، وما تبعه من إعادة نظر ومراجعات لمجمل الطروحات النظرية التي كان المثقفون يروجون لها حتى وقت قريب، سحب من تحت أقدام المثقفين البساط، وتركهم بلا سند اجتماعي وسياسي، وهذا يلخص، إلى حد بعيد، مأساة إخفاقهم، ومن ثم اغترابهم.

هل نحن أمام مشهد ميؤوس منه، أو أفق مسدود؟.

لا يقصد بالكلام عن الإخفاق، هذا المعنى قطعاً، فالإخفاق في نهاية المطاف هو ضياع فرصة أو مجموعة من الفرص، وتبقى هناك دائماً فرصة أخرى.

المثقف مغترب بحكم هذا الإخفاق.. الاغتراب عرَض طارئ إذن.. حالة مؤقتة مرتبطة بشروط قابلة للتحول، فحيث لا يستطيع المرء التكيف مع مناخ اجتماعي/ أخلاقي ما، أو وضع اقتصادي/ سياسي سمته الاستغلال والقمع يتعمق الاغتراب.. الشعور بالاغتراب، فالاغتراب ناتج عن فشل في التكيف والمواءمة، وأحياناً في الفهم.. أن تفهم محيطك، ووضعك في محيطك.. موقعك في العالم.

إن التكيف، في سياق كلامنا، لا يعني الإذعان لشروط الواقع كما هي، وإلاّ لانتفت صفة المثقف عن المرء بعده منشغلاً بمشكلة المعنى،وطارحاً مقولة الحق بوجه السلطة . أياً كان شكلها . ومعكراً صفو العام، فالتكيف، ها هنا، يعني أن تعيد علاقتك بالواقع كما هو.. أن تفكره.. أن ترتقي بفكرك ومفاهيمك بالصيغة التي من خلالها يمكن للواقع ذاته أن يتأثر، وأن يتغير.

إننا بحاجة إلى جيل آخر، في الأقل، كي يتفاعل العقل النقدي في الواقع، وينشأ قبول عام لإخضاع اليقينيات كلها إلى المحاكمة العقلية والنظر النقدي، ويسود خطاب حضاري جديد يعيد الاعتبار للذات الإنسانية جاعلة منها قيمة عليا، وللعقل والحرية، بعدها مرتكزات لحداثة غير مشوهة، طال انتظارها.

الأدباء العراقيون في استراليا يصدرون بيان استنكار لموقف اتحاد الأدباء العرب من تعليق عضوية الاتحاد العراقي

الأخوة الزملاء في اتحاد الأدباء العراقيين
تحية الإبداع

في هذه الأيام المأساوية التي يعيشها أبناء شعبنا العراقي، وهم يكافحون الإرهاب الوافد والمقيم، تلقينا قرار المكتب التنفيذي للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب باستمرار تجميد عضوية الاتحاد العام للأدباء العراقيين بدواع واهية منها الاحتلال الدولي للعراق.

ولقد اطلعنا بسرور غامر على الموقف الوطني الرصين الذي مثلته رسالة الاتحاد العام للأدباء العراقيين الموجهة للاتحاد العام للكتاب العرب، ورسالة أخرى مذيلة باسم الدكتور الناقد مالك المطلبي موجهة للأدباء العراقيين، وأخرى مذيلة باسم الناقد الأستاذ ياسين النصير بالمعنى ذاته، ونعلن بوضوح، نحن الأدباء والكتاب العراقيين المقيمين في استراليا، تضامننا مع رسالة الاتحاد العراقي ورسالتي الناقدين المطلبي والنصير.

إن الأدباء العراقيين في استراليا، من الموقعين على هذه الرسالة، وأكثرهم أعضاء أصلاء في اتحاد الأدباء العرب، وبعضهم لايؤمن بهذا الكيان أصلاً، يؤكدون على إن الاتحاد أهمل مراراً وتكراراً مناشداتهم المستمرة أيام النظام الديكتاتوري السابق في العراق عندما كان الأدباء العراقيون يفرون بالعشرات من ظلم الطغيان وتقييده الحريات الفكرية في الوقت الذي تقام لأعضاء المكتب التنفيذي في بغداد ولائم السلطان المغمسة بدم العراقيين من دون أن نسمع عن رأي معترض أو حتى إشارة شكوى. ولقد وصل الأدباء العراقيون إلى أقصى قارات الأرض لا لسبب سوى ظلم النظام الصدامي للمبدعين العراقيين، فيما قتل وسجن العشرات من المبدعين العراقيين في تلك الأيام ولم تصدر عن اتحاد الأدباء العرب أية إشارة استنكار أو حتى تساؤل..

واليوم، وإذ ينال المبدع العراقي حريته ويمارس ديمقراطيته التي حرم منها بانتخاب نزيه لأعضاء المكتب التنفيذي في العراق، يجابه بقرار جائر من قبل الاتحاد العام للكتاب والأدباء العرب يقضي بتجميد عضوية العراق في هذا الاتحاد استجابة لمشاعر معبأة بالحقد ضد المشروع الوطني العراقي الذي باركه الشعب ونخبه المختلفة... لا يخفى عليكم أيتها السيدات وأيها السادة أن العراق الذي يتحدثون عنه هو صاحب أولى الحضارات ومنه انطلقت حرفة الكتابة ومنه نبغ كبار الشعراء وانطلقت أبرز الثورات الأدبية والفكرية. العراق الذي يجمدون عضويته هو عراق الإبداع بلا منازع، وهم يعرفون هذه الحقيقة ولكنهم يطمسونها رغبة في أجندات سياسية بعيدة كل البعد عن شرف الكتابة والأخلاص في المشروع الفكري والأبداعي.

إننا نعلن وبوضوح لا لبس فيه، انحيازنا العراقي أولاً وأخيراً للمشروع الديمقراطي الذي يتبناه اتحادنا في العراق، وانحيازنا أيضاً لموقف هذا الاتحاد بوجه الحملات التي تتحدث نيابة عن القومية لعرب يظهر التاريخ أنهم لم يبرعوا في شيء قدر براعتهم في استحداث إتحادات وجامعات عاطلة تعيش على مآتم شعوبها، كما نعلن مؤازرتنا لأخوتنا في الاتحاد العراقي بكل الوسائل الممكنة، فخورين بدعوتنا لاتحادنا العتيد لتقديم إعلان رسمي ممهور بدماء الكتاب العراقيين الذين سقطوا نتيجة الارهاب الأعمى المدعوم باسم المقاومة العراقية من قبل الاتحاد العربي، بالانسحاب من هذه المنظمة حفظاً لكرامتنا وصونا لنتاجنا، ففي العراق منابع الثقافة الحرة و فيه ما يؤهله ليكون منارة كما كان دائماً، مؤكدين في الوقت ذاته على أن صلاتنا الشخصية وغير الشخصية بالأدباء العرب (ممن يرون في قرار اتحادهم امراً مشيناً ومبتذلاً) ستبقى قوية دائماً لأننا ندرك إننا وأصحاب الكلمة الحرة في كل مكان من الأرض حالة واحدة في التصدي للاتحاد المذكور ومحاولاته المشبوهة المرتبطة بأنظمة تسهر على اغتيال رعاياها ومصادرة حرياتهم، بل ومحاكاة خطاب الأنظمة المتخلفة القائم على قمع الحريات.

وندعو في هذه المناسبة زملاءنا الأدباء العراقيين كرداً وعرباً وتركماناً وكلداناً وآشوريين من الموزعين على خرائط المنافي المختلفة التصدي الحازم لقرار الاتحاد المشبوه وفضحه ومؤازرة اتحاد الأدباء في العراق الممثل الشرعي والرسمي للأدباء العراقيين، كما ندعو أخوتنا الأدباء غير العراقيين ممن يدركون الألاعيب التي يمارسها الاتحاد العربي وقيادته ضد المبدعين بالعربية بالعمل الجاد على تأسيس منظمة بديلة تكون خارج وصايات وعاظ السلاطين والأنظمة الديكتاتورية، منظمة معنية بهموم الأدباء الذين يكتبون بالعربية وشجونهم بكل تنوعاتهم وأطيافهم، فلقد شاخت اتحادات القومجيين وباتت منظماتهم عتيقة تتحكم بها حفنة ممن حسبوا أنفسهم على الإبداع من المدعين الخطاب القومي العربي ومغالطاته في هدر حقوق وتاريخ شعوب المنطقة ليقروا قرارهم المشين ضد حركتنا الفكرية المخلصة الجريئة .

عاش الشعب العراقي حراً كريماً

والمحبة كلها للاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين، مظلتنا الوطنية التي نفخر بها ونباهي، ولزملائنا الأدباء والكتاب والصحفيين العراقيين الذين يقارعون الإرهاب بشرف الكلمة وبأجسادهم الطاهرة، وما الفعاليات الثقافية العديدة التي ينجزونها يومياً إلا دروس بليغة على وطنيتهم وإبداعهم النير وضميرهم الحي.

الموقعون:

أديب كمال الدين
إستناد حداد
جمال حافظ واعي
حسن ناصر
د.حسن ناظم
حسن النواب
سعيد الغانمي
سلام دواي
عبد الجبار ناصر
عبد الخالق كيطان
هادي القزويني

حضور الغياب في مجموعة (ويظل عطرك في المكان)

محمد درويش علي

يحاول الشاعر خليل الأسدي في معظم القصائد التي ضمتها مجموعته الشعرية الأخيرة، "قصائد حب / ويظل عطرك في المكان" الصادرة عن دار الشؤون الثقافية مؤخراً، مغايرة المألوف، مقروءة، وتفعل من عملية التلقي، في غاية منه، هي الوصول إلى عالمه الشعري، بطريق مغاير يختلف عما تعوداه منه في مجاميعه الثلاث السابقة، أو في معظم قصائدها، إن لم تكن جميعها.

وما تسجل على هذه المجموعة من ملاحظة، هي أن الشاعر يخاطب حباً نفد، وامرأة رحلت، ولم تعد لها بقية إلا في ذاكرة الشاعر، وتركت له الذكرى حسب، وأدارت قلبها صوب شطآن الغياب، حتى جعلت من الشاعر يتخلى عن أمله، باحثاً عن لذته في هذا الغياب السرمدي، هذا الغياب الذي طوته الريح، أو الذكرى، أو الألم، أو سنوات العمر. فلو جئنا إلى القصيدة الأولى في المجموعة (ما زال حبك) يصف حبه بـ (ملكاً يسود على ممالك شيدت في الريح)، فدلالة الريح هنا واضحة، وهي تعني الزوال حتماً. وفي قصيدة (ماضٍ) يقول: كل ما قد مضى / هو عمر مضى من تواريخ لا تسترد يعتمد على مفردة (مضى) و(تواريخ لا تسترد) والأمر واضح هنا لا يحتاج إلى تعليق. وفي القصيدة التي أخذت المجموعة عنوانها منها (ويظل عطرك في المكان) يقول: تتسللين من القصائد (هاربة)، وأظل أعبث بالدقائق. يبقى الشاعر يعبث بالدقائق، بعد أن هربت متسللة من القصائد.

ويختتم القصيدة قائلاً: وما عاد انعتاقي من مدار الموت يوغل في فضاءات الأمل. حتى خلاصه من الموت يلفه اليأس، بعد أن تيقن من عدم إيغاله في فضاءات الأمل. وفي قصيدة (تحت المطر الأفريقي) تتكرر الحالة ذاتها حينما يقول: أخذت فوضاها / ومضت. أما في قصيدة (صغيرتي) فيحاول المزاوجة بين الاثنين: رحيلها وغيابه، وأراد هنا أن يعمل على تأسيس معادلة يجمع من خلالها الاحساسين:

مرت لياليك (سدى) وأنت من
فرجة شباك تلوحين يا صغيرتي
/ لعاشق مضى.

ففي قصيدة (رحيل) يكرس الحالة في العنوان والمتن معاً:

حين قالت: (وداعاً) مضى ظلها /
موغلاً في المسافات.

وتتحدث قصيدة (حبيبتي) عن خلاص آخر يلجأ إليه الشاعر عندما يصف حبيبته بالمدينة ويكون هو (نيرون) الذي يحرقها، وإن جاءت بتعبير آخر:

حبيبتي مدينة تضيئها السنة
اللهب / وإنني نيرون في أرجائها
/ ألهو بعيدان الثقاب.

إن قصائد الشاعر خليل الأسدي في مجموعته (ويظل عطرك في المكان) تنتمي إلى نمط من القصائد التي تكتب شاعرها، أي التي تحاول تلخيص جزء كبير من حياته التي تتحول من دون أن يدري إلى شعر فهي قصائد تتحدث عن تجربة واحدة، هي تجربة الغياب، أي غياب الآخر، الذي يتشكل بحضوره الشعري، أي إنه يفرض نفسه شعرياً، ويغيب تحت المسميات الأخرى المعروفة.

وفي شعرنا العراقي المعاصر، هنالك تجربة أخرى مشابهة، سبقت تجربة خليل الأسدي بأكثر من عقدين من الزمان، وهي تجربة الشاعر الراحل رشدي العامل في مجموعته (هجرة الألوان) التي كانت تجربة واحدة، هي تجربة الغياب أيضاً، إذ إن قصائد المجموعة كانت مشغولة بفكرة الغياب وإرهاصاتها عبر صفحات المجموعة، فكان يناغي قرطها، ومشطها وما إلى ذلك.

وعندما أشير إلى تجربة الراحل رشدي العامل، لا أقصد أن الشاعر خليل الأسدي، كان مقلداً لها، وإنما أذكر ذلك من باب الشيء بالشيء يذكر.

لقد كان خليل الأسدي في مجموعته هذه شاعراً يعرف كيف يقود جملته الشعرية، إلى عالم رحب، تبقى متقدة في ذهن القارئ..

حدقت في لا موعد
فرأيت حبك
بازغاً من فجره الأزلي
يحمل غصن زيتون
وطوقاً من قرنفل
أو كما في هذين المقطعين من قصيدة (من أجل عينيك.. وحدهما)
أنا الافتتاح الكبير لكل الهزائم
أدركت أني سأكسب حربي
لأجلك.